فى الفلسفة العربية

للأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى

جبلت النفوس على حب الاستطلاع وشغفت بالبحث عما تشاهده من مناظر بهجة ومحاسن باهرة، وشاقها ذلك السقف المرفوع المزين بالنجوم المتلألئة المختلفة الاشكال الجميلة الالوان السارة للناظرين

ثم راعها ماعلى الارض من زينة وجمال من أنهار جاريات، وبحار واسعات، ومعادن نافعات ونبات متسق الاوراق، بديع الازهار، يانع الأثمار، زين الارض بمحاسنه وذوقها بأنيق بدائعه ، عاش به الانسان والحيوان ، فكان منه غذاؤهما ودواؤهما و بهجتهما وأودع فيه من الغرام به والشهوة له ما ساقهما إلى السعى والبحث عنه كل حين

الحيوان مكتف بما لديه من غذاء حاضر وجلد قوي و وبر وشعر وصوف وأنياب محددة ومخالب قانصة وقوة جثمان وعدو سريع و إلهام يهدى الى سبل المعاش

أما الانسان فانه خلق ما كثير الحاجات يسعى لغذائه وملبسه ومسكنه وتعليمه وسفره ، فضعفه ظاهر ووهنه حاضر

لذلك اقتضت الحكمة أن يمتاز بالعقل فيسعى به لما تربه من الغذاء والدواء واللباس والمسكن والتعليم والتهذيب والمعاشرة ونظام الجمعية الانسانية . فما أكثر حاجة الانسان وما أحوجه إلى العلم والمعرفة . وما أقل حاجة الحيوان وما أحراه بالحرمان من معارف الانسان

إن النتائج تتبع المقدمات ، والثمار على حسب النبات ، فمن كفاه غيره السعى والطلب عاش خاملا ومات جاهلا ومن قام بأمر نفسه وسعى لها سعيها أكسبها قوة وأنالها حرية كانت حرية بالاجلال والاعظام ، هذه هى المزية التى اختص بها الانسان وبها سعادته . ألا ترى أن كمال كل شىء فيما اختص به ؟ فالفرس كماله فى العدو السريع وأنه إذا عجز عن ذلك نزل إلى مرتبة الحمير وعومل معاملتها فى الحمل والاعمال الخاصة

بها ؟ هكذا السيف كماله أن يكون صارما سريع القطع فان تنزل عن هذه الدرجة الرفيعة استعمل استعمال السكين ونبذه الشجعان وخرج من الميدان

هكذا الانسان لم يمتز الا بالعقل والعلم فاذا ما كان غافلا نزل الى رتبة أدنى من الحيوان، أولئك كالانعام بل هم أضل منها لأنها كاملة فى ذاتها لقيامها بما يناسبها فاذا انحط اليها الانسان وشاركها فى منازلها فهو فى خسران مبين

إن الفطرة الانسانية شاهدة بما قلناه فانه وإن نال الانسان مايبتغيه من المال ومايحب من الجاه لايفتأ يفرح بحلو الحديث وجمال العلم وتاريخ الفضلاء ويشتاق لذلك ويحرص عليه ولقد نرى أكثر الناس جهلا وأبعدهم عن العلم مجلسا إذا عيروا بالجهل عدوه إثما عظيما وناوأوا من عيرهم وشاكسوه، ذلك لان فطرهم شاهدة أن كمالهم بالمعرفة ونقصهم بالجهل

وترى الصبي يسأل أبويه عما حوله ليعرف أسباب الاشياء ومسبباتها كل ذلك شواهد ناطقة على ما قررناه، وترى جميع الناس فى مشارق الارض ومغاربها من أى دين أو نحلة يجلون العظماء ويعظمون الحكماء وإن كانوا هم أنفسهم جاهلين لما ركز فى طبائعهم ووقر في نفوسهم من شرف العلم وجماله واختصاصه بالانسان

تطابقت فطرة الانسان وحاجته: فكماله النفسي بالعلم وسعادته فى الحياة بالعلم ونظر الانسان فرأى فى نفسه شهوات لازمة وحاجات قائمة وعادات متراكمة فاحتال في تهذيبها وجد في تكميلها فكان علم الاخلاق، ثم رأى زوجا وولدا وخدما فكانت سياسة المنزل، ثم كان اجتماع أهل المدينة وكان لابد لهم من نظام وقوانين وأحكام فكانت سياسة المدنية

قرأت الأمم العلوم الرياضية لتعرف السنين والحساب والمعاملات ثم الطبيعة لتستخرج بها ما فى الارض من منافع، ونظرت فى العوالم فأقرت بأله نظمها وحكيم أبدعها

أهل المدنية كلما كانوا بالعلم مغرمين وعلى الفضيلة عاكفين كملت مدنيتهم وازدادت سطوتهم وكلما غفلوا عن ذلك ساءت حالهم وبئس المصير

وأقدم أمة عرفها التاريخ فى الحكمة قدماء المصريين وهكذا السريانيون وقام على آثارهم الكلدانيون ثم الفرس واليونان وقد حمل الحكمة من هؤلاء أساطينها مثل: سقراط وتلميذه أفلاطون وتلميذه أرسطو ولقد كان هذا أرسخهم فى العلوم ولذلك يسمى «المعلم الأول»

ولما انقرض أمر اليونانيين وصار الأمر للقياصرة نالوا من حكمة اليونان حظاً عظيما ونبغ فيهم نابغون مثل سنيكا وشيشرون ولما تنصروا وهجروا تلك العلوم بقيت كتبها في خزائنهم ثم جاء الاسلام وظهر أهله عليهم وامتد سلطانهم وعظمت شوكتهم ودانت لهم الأمم شرقاً وغرباً فاشرأبوا الى ما نالته الامم السالفة من روائع الحكمة وبدائع العلم والاحاطة بما في هذا الوجود على ما يقتضيه العمران ويتطلبه الملك وتعظم به الدولة وكان خالد بن يزيد بن معاوية — ويسمي حكيم آل مروان — رجلا فاضلا محبا للعلوم فأحضر جماعة من الفلاسفة وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة وغيرها من اليونانى إلى العربى وهذا أول نقل فى الاسلام

ولما نسخت الدولة العباسية الدولة الاموية ودانت لها البلاد و استتب الملك أرسل أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يرسل له كتب التعاليم مترجمة ، فبعث إليه بكتاب اقليدس و بعض كتب الطبيعيات فقرأها المسلمون وفهموها وزادوا حرصا وشوقا إلى علوم الحكمة كما روى « منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال »

فلما كانت أيام المأمون وقد كان أشرب قلبه حب العلم وأغرم بالحكمة أرسل إلى ملك الروم في استخراج علوم اليونانيين واستنساخها بالخط العربى و بعث المترجمين لذلك فترجموا منها الكثير وتلقاها النظار من أهل الاسلام بالقبول وعكفوا عليها ونبغوا فى فنونها، ولقد خالفوا المعلم الاول فى كثير من المسائل وردوا عليه ، ودونوا فى ذلك الدواوين وكثرت التآليف

ثم إن العلماء الذين ترجموا الكتب للمأمون كحنين بن اسحاق وثابت بن قرة جاءت كتبهم متخالفة مخلوطة غير ملخصة ولا محررة ولم توافق ترجمة واحد منهم الآخر فبقيت الى زمن منصور بن نوح السامانى فالتمس من أبى نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ هـ أن يجمع تلك التراجم ويجعل من بينها ترجمة ملخصة محررة مهذبة مطابقة لما عليه الحكمة فأجاب الفارابى وفعل كما تقتضيه وسمى كتابه بالتعليم الثانى فلذلك لقب بالمعلم الثانى و بقي هذا في خزانة المنصور إلي زمن السلطان مسعود من أحفاد منصور بن نوح

وكانت تلك الخزانة باصفهان وتسمى بصيوان الحكمة وكان الشيخ أبو علي الحسين

ابن عبد الله بن سينا الطبيب الفيلسوف المولود سنة ٣٧٥ هـ المتوفى سنة ٤٢٨ هـ (سنة ١٠٣٦ م) وزير المسعود كان قد تقرب إليه بسبب الطب حتى استوزره وسلم اليه خزانة الكتب فأخذ الشيخ الحكمة من هذه الكتب ووجد فيما بينها التعليم الثانى ولخص منها كتاب الشفا ثم إن الخزانة أصابتها آفة فاحترقت وقد اتهم بعض الناس الرئيس بأنه أحرق الكتب لئلا يطلع الناس على الحكمة التي نقل عنها وهـذا باطل لما يرى فى كتاب الشفاء من تصريحه بأنه تلخيص التعليم الثانى

ومن الحكماء فى هذه الامة أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى الفيلسوف من أمراء بني كندة وكان من المكرمين لدى الخلفاء من المأمون إلى المتوكل ، ولد سنة ٢٤٠ فى البصرة ثم سكن بغداد واشتغل بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية و بتأليف كتب فى الفلسفة و الرياضيات والطب والهيأة والموسيقى وعدد مؤلفاته ٢٦٥ وأكثرها ضائع الآن

ومن المترجمين البطريق فى أيام المنصور بن يحي الذي نقل المجسطى واقليدس للمأمون وحسين بن بهريق فسر للمامون عـدة كتب وكثير غيرهم : هؤلاء فى المشرق أما فى المغرب فكان القاضي أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بـكر بن الصائغ بالاندلس فهؤلاء نشروا كتبهم فارتقت الدولة واستبحر العمران حتى اذا تغير الزمان وقلب ظهر المجن وذهبت الدولة فنادى ابن خلدون فى مقدمته بالويل والثبور وقال أيها الناس لاتغفلوا عن الصنائع والعلوم فقد ركدت ريح مدنيتكم وخر عليكم السقف من فوقـكم فاصبحتم من الخامدين

ولما افتتح الترك القسطنطينية وقد نالوا حظاً وافراً من العلم حرم بعض علماء الدين كتب الحـكمة على المسلمين فمالت شمس الحضارة هناك إلى الغروب ونادى عالمهم ملا كاتب جلبي المتوفى في القرن الحادى عشر الهجرى بالويل والثبور

وقال ما ملخصه : ولما حل أوان الانحطاط ركدت ريح العلوم وتناقصت بسبب منع بعض المفتين من تدريس الفلسفة وسوقه إلى درس الهداية والاكل فاندرست العلوم بأسرها إلاقليلا من رسومها فكان المولى المذكور سببالانقراض العلوم من الروم كما قال العلامة شهاب الدين الخفاجى فى خبايا الزوايا وذلك من جملة أمارة انحطاط الدولة اه

فانظر كيف شكا علماء العرب والترك قديما من الجهالة العمياء والداهية الدهماء الحالة بالامم الاسلامية من ترك العلوم الفلسفية

طنطاوى جوهرى